رضوان السيّد

ثقافة الاستشراق ومصائره وعلاقات الشرق بالغرب

إسهام مهدى لرودي بارت

I

في أوائل شهر مايو من هذا العام احتفلت ڤيينا بالذكرى الثلاثمائة لتراجع الترك أمام أبوابها. وقد استمرت الاحتفالات شهراً كاملاً تخلّلتها محاضراتٌ مستفيضة عن صمود سكّان المدينة العريقة، وعن التنظيم العسكري العثماني، وأوضاع الدولة العثمانية وعلاقاتها بالغرب إبّان الزحوف الإسلامية باتّجاه أوروبا (١٤٠٠ ـ ١٦٨٣ م). وقد حاول منظِّمو المهرجانات أن يخفّفوا من الطابع التحريضي للمسيرات، والاحتفالات عن طريق فتح المجال لأحاديث شبه موضوعية عن القواسم المشتركة بين المسيحية والإسلام، وعن العلاقات الإنسانية بين المسلمين والمسيحيين ـ رغم الصراع العسكري ـ في العصور الوسطى. وبرزت في النقاش على هامش الذكرى الفخور مسائل مثل الاعتراف بالإسلام كدين، وبالمسلمين كمجموعة بشرية بأوروبا المعاصرة (في النمسا اليوم نصف مليون عامل تركي. وفي أوروبا الغربية عشرة ملايين مسلم من أصولٍ تركية وعربية وهندية وبلقانية). ورغم ذلك كلّه ما استطاع المعتدلون أن يكبتوا صرخات المحرِّضين الذين رأوا في القوة العاملة الإسلامية بالغرب « زحفاً » من نوع جديد يُهدِّد مصائر « الحضارة الغربية » المعاصرة؛ كما هدّدوها من قبل، وكما يتهدّدها الروس اليوم.

قبل ذلك بقليل كان مؤتمر المستشرقين الألمان قد انعقد بمدينة توبنجن؛ وسط إصرار المنظِّمين على الطابع الكلاسيكي للاستشراق. وعندما ارتفعت أصواتُ بعض شُبّانهم مطالبة

(★) Rudi Paret ـ مستشرق ألماني توفي منذ شهور. ترجم القرآن إلى الألمانية. وكتب بين أعمالٍ كثيرة دراسةً علميةً دقيقةً بعنوان: « محمد والقرآن »، وأخرى بعنوان: « الدراسات الإسلامية في الجامعات الألمانية ». وكان إنساناً جاداً مهتماً بالحوار الإسلامي المسيحي. وفي هذا الملف نظرةٌ في أعماله.

بحث العلاقات الإسلامية المسيحية، وقضايا المشرق الإسلامي اليوم - ذهب كبارهم إلى أنّ ذلك كله «سياسة» بحتة؛ لا شأن للاستشراق بها. وتباينت حُجَجُ هؤلاء في هذا الصدد. فمن قائل إنّ دراسة القضايا المعاصرة تقتضي ضرورةً اتّخاذ موقف؛ والموقف بحدّ ذاته مُضِرٌّ. ومن قائل إنّ صراعات المشرق المُعاصِر مختلطةٌ وغير واضحة بحيث يتعذّر طرحُها الآن في نقاشٍ علميٍّ هادىء. ورأى فريقٌ ثالثٌ أنّ بحوثاً من هذا النوع هي من مهامّ أساتذة العلوم السياسية والاستراتيجيين؛ ولن يستطيع المستشرقون أن يقولوا في شأنها جديداً.

II

هذان المثَلان قصدْتُ من ورائهما التدليل على أمرين: الحضور المتّصل للمسألة الإسلامية بالغرب من جهة، وصيرورة كل بحثٍ استشراقيٍّ عن قضيةٍ معاصرةٍ على الخصوص؛ إلى تأمُّلٍ في علاقات الشرق بالغرب، والمسيحية الغربية بالإسلام؛ من جهةٍ ثانية. وما عدا ذلك يدخل في نافلة القول، ومُماحكات الغفلة أو التجاهل المتعمّد ذي الأغراض السياسية.

وقد كان كتاب إدوار سعيد: الاستشراق؛ الدافع في الأصل لهذين العددين من مجلة الفكر العربي عن الاستشراق. والكتاب المذكور الذي أثار نقاشاً حامياً لم يخمُدْ أُوارُهُ بعد مُضيّ أربعة أعوامٍ على صدوره؛ هو كتابٌ سياسيٌّ من الطراز الأول. كما أنه كتابٌ حضاري. فإذا لم يكن ممكناً لنا أن نحصُرَ علاقات الشرق بالغرب في مسألة التبعية السياسية والاقتصادية. فليس ممكناً في الوقت نفسه بالنسبة للمستشرقين الأحياء (الذين يمارسون منهم الكتابة في الموضوعات الكلاسيكية) أن يقَزِّموا المسألة الحضارية (الثقافية) بحيث يُزاحُ منها تسعمائة مليون إنسان من المسلمين الأحياء في العالم اليوم.

ولكي لا يبقى الأمر في حيّز الأحكام العامّة والمسبقة يحضُرُني مَثَلا لويس ماسينيون، وبرنارد لويس (اللذان درسهما إدوار سعيد في كتابه السالف الذكر؛ وعرضْنا لهما في بحوث هذين القسمين من المجلة). كلا الرجلين عمل في المجال التاريخي. أمّا أولهما فاهتمّ بالتاريخ العقدي والفكري للإسلام؛ في حين اهتمّ ثانيهما بالتاريخ الاجتماعي والسياسي. لكنّ ماسينيون مؤرّخ الفكر عمل في الشرق المُعاصر، وأثّر في سياسات دولته (فرنسا) في التعامُل مع هذا المشرق. ثم انتابه قلقٌ روحيٌّ غلاّبٌ اندفع في خضمّه فكتب كتاباتٍ رائعةٍ (تُفهم على أكثر من مستوى) عن اللقاء المصيري بين أتباع ديانات التوحيد (الإسلام والمسيحية على الخصوص)؛

وقضى مع ذلك ممزَّقاً بين الصورة المُرتجاة، والواقع المخيِّب للآمال. وأصرّ الثاني على البقاء على أرض الواقع حتى وهو يكتب عن الأصناف (الجماعات المهنية المدينية في الإسلام الوسيط)، وعلاقات العرب بالتُرك في عصور الإسلام الزاهية. لقد ظلّ الرجل صهيونياً يتعامَلُ مع النصّ التاريخي العربي القديم، وسجلاّت الضرائب العثمانية؛ وعينه على الزحف الصهيوني المُعاصر على أرضنا. حتى إذا غادر بريطانيا إلى الولايات المتحدة حسر عن وجهه اللثام تماماً فلم يَعُدْ حاضراً عنده من الإسلام وحضارته غير المفهوم الأميركي للشرق الأوسط الذي أسهم هو وغيره في صياغته، ولم يَعُدْ حاضراً من المسألة السياسية الإسلامية غير مواقف اليمين واليسار الإسلاميين من الكيان الصهيوني بفلسطين، والمصالح الأميركية في العالم الإسلامي. ولسنا من التعنُّت بحيث لا نحترمُ قلق كلاسيكيي المستشرقين بألمانيا وبريطانيا وإيطاليا وأسبانيا من انكماش صورتهم في أذهان الشرقيين بحيث أصبحت بُحوثُهم (مهما بعُدت اهتماماتُها عن الحاضر) تُرى بالمنظار نفسه الذي تُرى به بحوثُ لويس وزويمر ولامنس. فدارسان كهلموت ريتر ورودي پارت؛ أبدع أولهما في مجالات تاريخ الفكر الديني الإسلامي، والدراسات الأدبية العربية والفارسية والتركية. ونذر ثانيهما نفسه في العشرين سنة الأخيرة من حياته للدراسات القرآنية - لا شأن لهما فعلاً بصراعات الشرق والغرب؛ رغم اختلاف ما بينهما في الطبع الشخصي والالتزام الخُلُقي؛ لكنّ الاستخدام الوظيفي للمعرفة لا تحدّده نوايا الفرد الكاتب. ثم إنهم يعرفون أنّ مجتمعاتهم هم تُحيطُهُم بالشكوك نفسها؛ وإن اختلفت الأسباب. والدولة الغربيةُ الحديثة (في المنظومتين الرأسمالية والاشتراكية) من السطوة وأسباب التحكُّم بحيث تستطيع - وهم يعلمون ذلك - أن تستخدم نتائج دراساتهم في القنوات التي تُريد، والتي تخدم مصالحها في بلادنا. والغِرُّ فقط - منا ومنهم - هو الذي يرى في الاختلافات المنهجية في دراسات وات وموميين ورودنسون وپارت عن نبيّ الإسلام؛ مُصادفةً بحتة.

III

ولسنا من قِصَر النظر بحيث نعتبرهم المسؤولين الرئيسيين فكرياً عن صورتنا وصورة الإسلام المعاصرة بالغرب. وقد أوضح إدوار سعيد في أحدث كتبه: تغطية الإسلام؛ أنّ وسائل الإعلام الحديثة هي التي تصنعُ الصورةَ والرأي؛ بحيث يتعذّر على الشجعان والموضوعيين والمعتدلين منهم (إن وُجدوا) التصدّي لوسائل صناعة الرأي العامّ في قضايا الشرق الإسلامي وأحداثه.

ويفضي بنا هذا كلّه إلى طرح التساؤل الكبير المُضْمَر والظاهر في الوقت نفسه: ما هو الاستشراق، ومَنْ هم المستشرقون؟! . إنّ المهتمين بالمشرق قديماً (لنقل: منذ القرن الثامن عشر) كان منهم الرحّالةُ والمبشّرون والضُبّاط، ورجال الإدارة الاستعمارية، واللّغويون، واللاهوتيون، والانتروبولوجيون، ومؤرّخو الحضارات، والرومانسيون، والأركيولوجيون. وأضيف إليهم منذ مطالع هذا القرن: التربويون، ورجال المخابرات، والمؤرِّخون الاقتصاديون، ومتدرِّبو الشركات، وخبراء الأسواق التجارية، والسياسيون، وذوو النوايا الطيّبة من المهتمين بحوار الشرق والغرب، وعلاقات المسيحية بالإسلام. وطبيعيٌّ ـ ما دامت زوايا الاهتمام ودوافعه متباينة؛ أن تتباين نتائج الدراسات، ووجوه استغلالها. أفليس من حقّ الشرقيّ (موضوع الدراسة!) أن يقرأ الأسباب والمناهج قبل أن يقرأ البحوث نفسها؟. وقد سادت بين المشرقيين في عقود السنين الأخيرة نظرةٌ ذات بُعْدٍ واحد تُريدُ أن تسوقَ الجميع بعصا واحدة؛ وهو أمرٌ مؤسفٌ ولا شك. فغران وتيرنر وأندرسون ـ على سبيل المثال ـ يختلفون فعلاً عن كير ولاكير وهرڤيتز ورابينوڤتش. وهؤلاء جميعاً ـ بمقياس كلاسيكي الدارسين للإسلام ـ ليسوا من المستشرقين. ويذكر سوذرن في مطلع كتابه: صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى أنه لا يضع نفسه في مصافّ دارس الإسلاميات الكبير؛ نورمان دانييل (صاحب مجلّدي: الإسلام والغرب، والعرب وأوروبا). لكنّ قراءةً متأنيةً لسوذرن ودانييل تضعهما معاً خارج مفهوم الاستشراق إذا كان يعني معرفةً جيدةً بالعقيدة والحضارة الإسلاميتين. فالرجلان يقرآن الصورة الغربية عن الإسلام الوسيط قراءةً نقديةً كاشفة؛ لكنهما عندما يحاولان عرض ما يعتبرانه صورة الإسلام الحقيقية يقعان في أخطاء فاضحة لا يمكن أن يقع فيها ماسينيون أو جب وحتّى لامنس.

IV

وتنعى الاستشراق اليوم أوساطٌ كثيرةٌ؛ ليس منها خصومه التقليديون من الأنتروبولوجيين والسياسيين بالغرب، والمتشدِّدين المسلمين بالشرق. ويمكن التماسُ الظواهر الدالّة على ذلك في قلة ما صدر ويصدر منذ ثلاثة عقود من دراساتٍ وبحوثٍ استشراقية. وفي تضاؤل عدد الذين يعرفون لغات الشرق من الدارسين الغربيين للاستشراق. ثم في قلة الاهتمام بتطوير معاهد الاستشراق، وتناقُص عدد كراسي الأستاذية فيها، وفي وجود بعض شبّان الدارسين للمشرقيات دونما عمل. في مقابل ذلك تتجدّد ظواهر مطالع هذا القرن في بعض الأوساط

الاستشراقية بفرنسا وأميركا؛ إذ يتحوّل الدارسون الاستشراقيون الكلاسيكيون عن كراسيهم الجامعية ليعملوا مستشارين وخبراء في مؤسساتٍ حكومية أو قريبة من الحكومة وصناعة القرار. أمّا الشبان منهم فيعملون مخبرين صغاراً وكَتَبة تقارير في إدارات الخارجية والحرب، وفي الشركات.

بيد أنّ للأمْر وجهه الآخر. فالاستشراق في حالة ركودٍ فعلاً؛ ولا ينفصل ذلك عن حالة الركود الاقتصادي والثقافي بالغرب القديم. لكنّ ذلك لا يعني نهايةً له إذ إنّ الظواهر السالفة الذكر تبقى خارجيةً لا تمسُّ جوهر التخصُّص ومتفرعاته؛ إنما يتهدَّد الاستشراق حقيقةً مسائل أخرى. فالذين يتحدّثون عن نهاية الاستشراق الوشيكة يذكرون ثلاثة أسبابٍ تُسوِّغ ذلك من الداخل:

أ. تخلُّف المناهج؛ فقد شهدت الكتابة العلمية بالغرب؛ وفي العلوم الاجتماعية على الخصوص تطوراتٍ ثورية تناولت مسائل «الصورة التاريخية»، وماهية النصّ، وعلاقة النصّ القديم بالدارس المعاصر وبالمجتمع الذي ظهر فيه. وما تزال التاريخانية تسودُ أوساط الدارسين الكلاسيكيين من المستشرقين؛ والتاريخانية نهجٌ ذو طابع أخلاقيّ كانت له ثمراتٌ كثيرةٌ قبل خمسين عاماً خصوصاً في مجال نشر النصوص نشراً نقدياً، وفي تقديم عروضٍ شاملةٍ واسعةٍ عن بعض الحِقَب والأشخاص والأحداث (وأقرأ عن التاريخانية في الفكر الأوروبي كتاب ماينكه المهمّ Die Entstehung des Historismus). بيد أنّ كل عودةٍ لذلك اليوم ليست غير تكرارٍ يظلّ في أحسن حالاته تذكيراً بالقديم دون أن يغيِّر من الصورة شيئاً أو يُعين على جلاء بعض الغوامض. وربما كانت دراسةُ ڤلهاوزن بعنوان: «الدولة العربية وسقوطها» نموذجاً صالحاً لما نقصده. فقد صدرت عام ١٩٠١ بالألمانية، ثم صدرت بعد ذلك بالإنجليزية، ولغاتٍ أخرى منها العربية. ويمكن القول إنها شكّلت صورةً معينةً عن الأمويين؛ بل وعن طبيعة الخلافة الراشدة ما تزال سائدةً في أوساط الدارسين حتى الآن. والذين كتبوا عن صدر الإسلام أو عن الأمويين (خلافةً وأفراداً) من بعد لجأوا دائماً لاقتباس رؤية ڤلهاوزن مع حشْوها ببعض التفاصيل الخاصّة بالموضوع. ولا يرجعُ ذلك إلى أنّ رؤية ڤلهاوزن صحيحة؛ بل إلى أنّ النصّ التاريخي الإسلامي عن الأمويين ما يزال يُقْرأُ بالمنهج نفسه القائم على الجمع والتقميش ثم ترتيب الروايات دونما فحصٍ للنصّ من الداخل، وللكاتب وراء النص ـ هذا فيما عدا الكلام العامّ عن ميول هذا الراوية أو ذاك سياسياً وعقدياً. وقد حاول رجلٌ كمحمد شعبان أن

يتجاوز ڤلهاوزن ـ لا باستعارة مناهج العلوم الاجتماعية ـ بل عن طريق الإغراب؛ فجاءت دراساتُه الثلاث عن صدر الإسلام والخلافة الأموية، والخلافة العبّاسية باعثةً على الضحك لتضخيمها للجزئيات، واعتمادها في التجديد على التأويل المُغْرق في الغرابة لبعض المصطلحات والمُفْرَدات.

إنّ الأزمة المنهجية في الاستشراق؛ وبعض فروع العلوم الإنسانية بالغرب مصيريةٌ بالفعل. وهناك كثرةٌ من المستشرقين اليوم ما تزال تجمعُ وتجمعُ وتدقّقُ في الجزئيات، وتبحث عن تواريخ وفيات بعض الأشخاص، وتزدرد وتمضغ ما سبق لجولدزيهر ونولدكه ومرجليوث أن مضغوه ولفظوه. وربما كان هذا الإحساس بانسداد الطُرُق واللاجدوى هو الذي دفع أُناساً من المستشرقين لتلمُّس طُرُق أخرى للجدية والتجديد. فهناك محاولاتٌ اليوم في نطاق الاستشراق الكلاسيكي لاستخدام طرائق العلوم المعاصرة (تاريخ العلوم، وفلسفة العلوم، والرؤية الهرمونويطيقية للنصّ)؛ ولأنّ المحاولات جديدة وقليلة لا يمكنُ الحُكْمُ على مدى جديتها وجدْواها. أمّا المتوسّلون بالبنيوية فما أفاد منهم الاستشراق غير الإحصاء الدقيق للكلمات والحروف؛ وما نحْسبُ أنّ المسألة تستحقُّ المتابعة.

لكنّ انسداد الطُرُق دفع جماعةً من العاملين في حقل الدراسات الإسلامية بالغرب للعودة إلى الوراء تماماً. فإذا كان رجالٌ مثل كيرتون ونوت ودونَّر قد عمدوا إلى التوسُّل بطرائق غير طرائق الكلاسيكيين بحثاً عن مزيدٍ من الموضوعية والجدّة؛ فإنّ آخرين من مثل وانسبورو وكوك وكرونه وهاوتنج وتسِمّرمان يعودون إلى ديكارتيةٍ بدائيةٍ مستخدمين في ذلك طرائق نقد النصّ في الدراسات اللاهوتية (دراسات العهدين القديم والجديد). يعودُ هؤلاء شأن تاريخاني القرن التاسع عشر إلى بحث قضايا البدايات في الإسلام: ظهور القرآن، وظهور الكتابة، وظهور علم الكلام، وظهور الحديث النبوي، وتكوُّن الأيديولوجية السائدة. وهم يبدأون بتكذيب كل شيء وإنكاره وإعادته إلى حقبٍ متأخرةٍ جدًّا عمّا تذكره المصادر. وكان رجالٌ من مثل جولدزيهر وفولّلر ومرجليوث وشاخت قد حاولوا تغيير الصورة السائدة في المصادر العربية القديمة عن هذه القضايا محتجّين بفقد الوثائق أو نقصها أو انتحالها فيما يتصل بالقرنين الأول والثاني للهجرة. لكنّ العقود الثلاثة الماضية أظهرتنا على وثائق ونصوص بالغة القِدَم والأصالة بحيث أصبحت صُوَرُ جولدزيهر وشاخت وسواهما غير ذات موضوع. وقد أسهم في نشر تلك النصوص وتأصيلها باحثون غربيون وشرقيون من مثل نبيهة عبّود وغروهمان وفؤاد سزكين ومحمد مصطفى الأعظمي ومحمد حميد الله ويوسف فان اس. والباحثون

عن تخريب الصورة القديمة/الجديدة يلجأون إلى الشكّ المطلق دونما تعليلٍ أو تدليلٍ واضحين؛ معتبرين الشواهد العبرية والبيزنطية والسريانيةِ الأولى بالقبول والاعتبار. أمّا ما يلجأون إليه من نصوصٍ خارجية غير عربية فمتأخّرٌ غالباً عن الحقبة الإسلامية الأولى بما لا يقلّ عن القرنين من الزمان. فإذا وجدوا نصّاً عربياً يخرج على المألوف السائد قبلوه واعتبروه حُجّةً لا ردّ لها ناقضين بذلك موضوعتَهم الأولى في عدم اعتبار النصّ العربي الإسلامي المبكّر (انظر نقاشاتٍ حول ذلك في مجلة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن BSOAS ١٩٧٨ ـ ١٩٨١. والتقويم الشامل الذي كتبه ڤاجنر بمجلة جمعية المستشرقين الألمان ZDMG م م ١٣٢/١٩٨٢). وللسيدة نويڤرت التي ذكرتها من قبل دراسةٌ نقديةٌ عن هذا الاتجاه في مؤتمر المستشرقين الألمان عام ١٩٨٠. هكذا تبرز من جديد في استشراق الدراسات الإسلامية الكلاسيكية موضوعات الاستشراق التبشيري القديم عن اشتقاق الإسلام من اليهودية والنصرانية، وعن تزوير المسلمين المتأخرين لشواهد الأديان السابقة في الإسلام الأول.

إنّ الأمر بوجهيه: التاريخاني المكرور، والديكارتي النافي؛ يدلّ بوضوح على المأزق المنهجي للاستشراق، ويدعم شكوكَ الذاهبين إلى إفلاس هذا التخصُّص، ومصيره إلى التواري والزوال. لكنّ الإنصافَ يقتضينا أن نقرّر أنّ هذين الاتجاهين ليسا سائدين في الاستشراق المعاصر. فاستناداً إلى النهج الهرمونويطيقي (النهج التحليلي في نقد النص) نفسه دافعت دارسة متمكنةٌ هي السيدة أنجليكا نويڤرت عن أصالة النصّ القرآني ووحدته وقدمه في بحثها في السُوَر المكية من القرآن.

ب. فقدان الخصوصية؛ فالاستشراق ـ في نظر النُقّاد المعاصرين من مسلمين وغربيين ـ قام على أساس خصوصيةٍ معيَّنةٍ افترضها لهذه المنطقة من العالم. وهذه الصورةُ الخاصّة اقتضت تضامّها في تخصُّصٍ مشترك، وإجراء دراسات خاصّة بها لكشف وجوه تميُّزها في تاريخ الشرق، وتمايُزها عن الغرب. والنقد ينصبُّ على نقطتين؛ فالصورة المفترضة غربيةٌ بحتةٌ لا شأن لهذه المنطقة بها إلاّ من بعيد، وفي جزئياتٍ معينة. إنّ المثقفين الغربيين (والمهتمين منهم بالشرق على الخصوص) ميّزوا الشرق بصورة متخيَّلةٍ إرضاءً لميولٍ ومصالح وأحلامٍ، وتمييزاً له عن الغرب الذي يبقى هو بدوره مفهوماً غائماً شديد العمومية (قارن على سبيل المثال بمقالة غسّان سلامة الجيّدة بعنوان: عَصَب الاستشراق؛ في مجلة المستقبل العربي؛ العدد رقم ٢٣/١٩٨١). والدليل على ذلك أنه في ظلّ هذا المفهوم للشرق ظهرت رؤى انتروبولوجية

وإثنية وفكرية تُحوِّلُ الشرق هذا إلى حقل تجارب لفروضٍ ونظرياتٍ متخلفة من وجهة نظر تاريخ العلوم وفلسفتها، ومن وجهة نظر علوم الحياة والاجتماع. لقد ظهر العِرْق السامي بخصائصه الخَلْقية والعقلية فظهرت في المقابل الإثنياتُ الأُخرى. وبرز في هذا المجال إرنست رينان وجوتييه وجوبينو. ومع ماكس ڤيبر وعلم الاجتماع الوظيفي وأنتروبولوجيا المجتمعات البدائية (قارن عن ذلك كتاب الأنتروبولوجيا والاستعمار لجيرار لكلير الذي نشرته مجلة الفكر العربي مترجماً عام ١٩٨٢). والرؤية الماركسية لما سُمِّي نمط الإنتاج الآسيوي (انظر عن ذلك كتاب تيرنر: ماركس ونهاية الاستشراق؛ الذي راجعه هذا الملف) برزت فرضيةُ المجالات الثقافية المتمايزة في العالم؛ تلك التي طوّرها استشراقياً كارل هينرش بيكر وشيدر؛ (قارن بدراسة يوسف فان اس عن ڤلهاوزن وبيكر في: الدراسات الإسلامية؛ نشر مالكولم كير - وقد راجعنا الكتاب في هذا الملف)، وبلغت ذروتها في الدراسات الإسلامية على يد ليڤي ديللاڤيدا وجوستاف فون غرينباوم.

والنقطة الثانية تتضمن نقائض تكشف خطورة أُطروحة الخصوصية من الناحيتين العلمية والسياسية. إنها النقطة الخاصّة بمفهومي العالم الثالث والشرق الأوسط في الاستشراق الأميركي. فإذا خصصْنا مفهوم الشرق الأوسط هنا بالتأمُّل لاتّصاله المباشر بموضوعنا لاحظْنا أنه تبلور تماماً في عالم الاستشراق الجديد على يد أربعةٍ هم: غرينباوم، وبرنارد لويس، وهاملتون جب، وفاتيكيوتس. والمفهوم جيوبوليتيكي في الأساس يبدأُ من خصوصية المجال الثقافي الشرق أوسطي ليصل إلى تجريد هذا المفهوم المبتَدَع في النهاية من كلّ خصيصةٍ تاريخيةٍ أو فكريةٍ فيبقى مجالاً جغراسياً للمصالح الغربية والأميركية على الخصوص؛ وبؤرةً للصراع على الثروة بين القوتين الأعظم. إنّ موضوعة الشرق الأوسط في الاستشراق، ودراسات العالم العربي المعاصر بأميركا (خصوصاً) وفرنسا وإنجلترا؛ سياسيةٌ بحتة. وهي تتصاغرُ في النهاية بحيث تصبحُ تقارير لإرشاد الساسة الغربيين في التعامُل مع هذه المنطقة. ويختلف الدارسون فيما عدا ذلك من تفاصيل؛ ويبقى الهدف مع ذلك واضحاً. فهناك أُناسٌ من بينهم ذوو ميول كلاسيكيةٍ واضحةٍ في رؤية الأمور يؤكّدون على الاستمرارية الثقافية في المنطقة توصُّلاً لإنكار المستجدّات واعتبارها غير إسلامية، وغير أصيلة؛ بحيث تكون نصيحتُهم للساسة في الغرب أن يقفوا إلى جانب الأنظمة المحافظة في المنطقة لأنها الممثِّلة للثقافة الأصيلة، والأبقى، والأقدر على رعاية المصالح الغربية. وهناك ذوو النزعات السياسية

والاستراتيجية من بينهم؛ وهؤلاء يعتبرون الظواهر القومية والإقليمية اتجاهاتٍ للتأثُل مع الغرب تستحقّ الدعم والتشجيع لأنها تعني انخراطاً في المُعاصرة التي صنعها الغرب وهي الأقدر بالتالي على حماية مصالحه في الحاضر والمستقبل. ويرى هؤلاء أنّ مشكلات الغرب في الشرق الأوسط ناجمةٌ عن تعثُّر التحديث في بعض المناطق، وفشله وتراجعه في مناطق أُخرى. وفي حين يقفُ محلِّلو الاتجاه الأول حائرين أمام الظواهر الإسلامية غير التقليدية والمعادية للغرب في الشرق من مثل الثورة الإيرانية، والحركات الإسلامية المُعاصرة؛ يعتبر أنصارُ الاتجاه الثاني هذه الظواهر النافرة بالذات دليلاً على ضرورة تحديث الشرق الأوسط بالقوة إن اقتضى الأمر؛ حفاظاً على مصالح الغرب فيه (وانظر مراجعة كتاب برنارد لويس: الغرب والشرق الأوسط آخر هذا الملف).

إنّ نُقّاد الاستشراق القائم على الخصوصية من مثل أنور عبد الملك وتيرنر وغران وهاليداي وإدوار سعيد وشولخ وفلورس؛ على ما بينهم من تمايُزات؛ يرون في صُوَر الشرق الإسلامي، والعالم الثالث، والشرق الأوسط عند الدارسين الغربيين (بغضّ النظر عن تاريخية الثقافة والحضارة في المنطقة؛ وهي مسائل لا يمكن إنكارُها) تجلّياتٍ للنرجسية والمركزية الغربيتين لا بد أن تزول في سياق عمليات التحرر الجارية بعمق وعلى المدى الطويل في هذه العوالم الجغرافية والحضارية والسياسية المتغيرة والناهضة. ولا يستطيع الاستشراق أن ينكر هذه المتغيرات؛ لكنه يزول حتماً بمعناه التقليدي عندما يضطر للاعتراف بها.

جـ. تعدُّد مجالات الاهتمام؛ فمستشرقُ مطالع هذا القرن اعتبر نفسه، واعتبره مجتمعه إلى حدٍّ ما؛ خبيراً مطلق الصلاحية في شؤون الشرق الإسلامي. لكنّ هذا الخبير per excellence كان - وما يزال - بمقتضى الإعداد الذي تزوَّد به محدود المعرفة، ومحدود القدرة على الفهم. وليس هذا عيباً في الأساس. فرجلٌ كبروينلش (كتب رسالَته للدكتوراه عن بسطام بن قيس الشيباني - زعيم شيبان إبّان الإسلام)، ودارسٌ كمارتن هارتمان (اهتمّ باليمن قبل الإسلام) ما كان منتظراً منهما أن يستطيعا فهم التركيبة الاجتماعية/السياسية في الإسلام الوسيط؛ فكيف إذا حاولا إرشاد حكومتهما في قضايا مثل التعامُل مع القبائل العربية مطالع القرن العشرين، أو صراع المصالح بين ألمانيا وفرنسا في الشرق قبل الحرب الأولى وفي فترة ما بين الحربين. لكنّ الرجلين حاولا كما حاول غيرهما؛ وكانت النتائجُ مضحكة. وقد بدا ذلك بوضوح في النقاش الذي دار على صفحات المجلاّت الاستشراقية إبّان الحرب الأُولى بين الألماني كارل هاينرش

بيكر والهولندي سنوك هورغرونيه. والأول دارسٌ للتركيبة الاجتماعية/الاقتصادية في صدر الإسلام؛ والثاني دارسٌ لتاريخ مكة وناشرٌ لبعض النصوص القديمة المتصلة بذلك التاريخ. وقد حاول هورغرونيه أن يُساعد حكومته في السيطرة على الإسلام الإندونيسي؛ بينما حاول بيكر أن يفهم لألمانيا القيصرية الإسلام العثماني. وقد تبادلا اتّهامات العداء للإسلام الحديث، واستخدام العلم في السياسة الاستعمارية. بيد أنّ الرجلين فشلا كخبيرين استعماريين، ولم يبق من إسهامات بيكر غير تحليله لنظام الخراج بمصر الإسلامية، وجدليات علاقة الإسلام بالهيللينستية. كما لم يبق من إسهامات هورغرونيه غير نشراته لبعض النصوص الكلاسيكية. وما يُقالُ عن هؤلاء الذين ذكرتُهم يقال عن كثيرين غيرهم؛ من مثل هاملتون جب الدارس الجيد لكلاسيكيات الإسلام في مُحاولته لفهم التيارات المُعاصرة في الإسلام لصالح الشركات الأميركية. ومن مثل يوسف شاخت الدارس الجيّد للفقه الإسلامي في محاولاته لفهم بعض الظواهر السياسية بإفريقية الإسلامية الثائرة. وتاريخ كامبردج للإسلام آخر هذه المُحاولات المفلسة. فقد صدر التاريخ المذكور في أربعة أجزاء كتب فصُولَها مستشرقون مشهورون بإشراف هولت ولامبتون ولويس. بيد أنّ هؤلاء الذين ما زالت أوهام الشمولية الاستشراقية القديمة تحتلُّ رؤوسَهم فَشِلوا فشلاً ذريعاً في استقصاءاتهم وتعميماتهم ذات الطابع الكلاسيكي/التاريخاني. فشپولر الدارس المشهور للتاريخ السياسي الفارسي ما استطاع أن يفهم نظرية الخلافة الإسلامية فاكتفى بجمعٍ سريعٍ لرؤى ڤلهاوزن وجب وروزنتال. ولامبتون الدارسة المعروفة للتشكيلات الاجتماعية والسياسية الفارسية المبكّرة فشلت في فهم متغيِّرات إيران الصفوية والقاجارية. وزين نور الدين زين عاد لتكرار رؤيته المتسرِّعة للاجتماع العثماني المتأخر. بينما كتب روستوف فضلاً عن التأثير الغربي في الشرق أجزم بأنه لم يستغرق من اهتمامه غير أمسيةٍ واحدة. ويطول بنا الحديث إن لجأنا للتعداد التفصيلي لنقائص هذا المشروع الضخم ذي الطابع الأكاديمي.

وإذا كان نقدنا قد انصبَّ على الدارسين الكلاسيكيين من المستشرقين الذين يُحاولون دراسة الاجتماع الإسلامي الحديث والمُعاصر؛ فلا يعني ذلك أنّ خبراء الاستشراق المُعاصر متمكِّنون أو يتجنبون نقائص الشمولية القديمة. إنّ الأمر على العكس من ذلك تماماً. فكثيرٌ من هؤلاء الذين يقرأون الإسلام المُعاصر من خلال بعض الظواهر السوسيولوجية أو الاقتصادية لخدمة إدارات دُوَلهم أو شركاتهم (التي تُموِّلُ بحوثهم غالباً) لا يعرفون في أكثر الأحيان لغات الشعوب التي يدرسونها. وهؤلاء يتحولون أحياناً إلى خبراء بعد إذ تعذّر عليهم التخصُّصُ في مجالاتٍ

أخرى. وهم يتهربون من التعمّق بإحدى طريقتين؛ إمّا أن يلجأوا للإحصاء والتعداد في مجال الظواهر ثم يقفزون إلى النتائج ذات الطابع السياسي؛ وهي نتائجُ مفترضةٌ منذ البداية. وإمّا أن يلجأوا للتاريخ مستعرضين قراآتهم للمراجع الثانوية لكلاسيكيي المستشرقين توصّلاً للنتائج نفسها.

فإذا كان الفريق الأول يقدّم صورةً شموليةً ساذجةً؛ فإنّ الفريق الثاني لا يقدّم أكثر من تقريرٍ مخابراتيٍّ متسرِّع.

إنّ مأخذ نُقّاد الاستشراق هذا يتركّز في النظرة إلى ظواهر المشرق نظرةً لا تختلف عن ظواهر الغرب. فدارسُ الاجتماع الغربي في حقبةٍ معينةٍ ليس حُجّةً في غير تلك الحقبة. بل إنّ رجلاً كبروديل لا يُنتظَرُ منه أن يقول جديداً في غير العوالم الاجتماعية للعصور الوسطى الأوروبية. فلماذا يستطيع برنارد لويس أن يكتب عن كل شيء في الشرق خلال خمسة عشر قرناً؟!. وبغضّ النظر عن تلك الرؤية للشرق المستندة إلى مركزيةٍ غربيةٍ ظاهرةٍ سبق أن عرضْنا لها؛ يقدّمُ نُقّادُ الاستشراق تفنيداً أداتياً علمياً لهذا الشمول الخادع للاستشراق. كيف يكونُ ليفي شتراوس أنتروبولوجياً فقط؛ بينما يستطيع تشنر وجاك بيرك أن يكونا مؤرّخين وسوسيولوجيين وسياسيين واقتصاديين عندما يتعلق الأمر بالمشرق الإسلامي؟! من هنا نفهم إصرار إيف لاكوست على أنه ليس مستشرقاً في المقابلة التي أجرتْها معه المجلةُ في العدد الثاني من هذا الملف.

إنّ الاستشراق ـ في نظر هؤلاء النقّاد ـ يتناثر وينحلّ في تخصّصاتٍ متباينةٍ كالتاريخ والسوسيولوجيا والأنتروبولوجيا والاقتصاد والسياسة. لم يعد هناك عالَمٌ واحدٌ اسمه الاستشراق؛ بل هنا عوالم متباينةٌ يحملُ كلٌّ منها عنوان المجال الذي يهتمّ به. فإذا كانت مفاهيم الشرق والعالم الثالث والشرق الأوسط ضبابية وغير علمية؛ فإنّ مفهوم الاستشراق صار اليوم كذلك.

V

أمّا النقدُ الإسلاميُّ والعربي والمشرقي للاستشراق فأقدم من ذلك، ومختلف المنطلقات والأهداف. وربما كان جدل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده مع إرنست رينان وهانوتو أول فصول هذا النوع من النقد. وقد ظلّ منذ ذلك الحين دينياً سياسياً بالغ العنف والتشكّك. هذا

الموقف القاسي من الاستشراق لا يعرف منه غير أنه مظهرٌ من مظاهر علاقة الشرق بالغرب؛ بل هو أكثر هذه المظاهر تفجُّراً وعدائية. فإذا كان الغرب قد غزا الشرق والإسلام عسكرياً منذ قرون؛ فإنّ الاستشراق ـ في نظر نُقّاده المسلمين ـ رافق هذا الغزوَ بل تقدّمه ومهّد له الطريق على الجبهة الثقافية والفكرية. والحقُّ أنّ هذه الرؤية للاستشراق لا تُفْرِدُهُ دون سائر ظواهر الغرب؛ بل ترى فيه فصلاً في مؤامرةٍ كبرى على الإسلام والمسلمين اسمها الغرب؛ أياً كانت هويةُ هذا الغرب. فهو عندما كان مسيحياً أراد ضرب الإسلام لنشر المسيحية بالقوة والتبشير. وهو عندما صار علمانياً أراد «تخريب» عقائد المسلمين لتضعُف مقاومتُهم فيسهُل استغلالُهم. ويرى القائلون بذلك أنّ اليهودية العالمية كانت وراء ضرب الدين بأوروبا من أجل السيطرة والتغلغل؛ ولا يُنتظَرُ أن تكون اليهوديةُ المسيطرة أكثر رأفةً بالإسلام. وللشيوعية المسيطرة في أجزاء كبيرة من العالم ـ في نظر هؤلاء ـ مصلحةٌ كبرى في ضرب الإسلام. فالماركسية اللينينية ضد كل دينٍ على أي حال. والروس بالذات اليوم لديهم مشكلةٌ إسلاميةٌ كبرى بالداخل حيث يتوطن عشراتُ الملايين من المسلمين في الأقاليم التي ورثتْها روسية الاشتراكيةُ عن القيصرية.

وإذا كان نقض الأفغاني وعبده للرؤية الغربية للإسلام والشرق قد انصبّ على النواحي المبدئية العامّة ذات الطابع الشمولي. من مثل: العقلية السامية والعقلية الآرية، وإسهام الإسلام في تقدُّم المسلمين أو تخلُّفهم؛ فإنّ مطالع هذا القرن شهدت معالجاتٍ أكثر تحدُّداً؛ إذ ردّ محمد رشيد رضا على كتاب أميل درمنغهام عن النبي، وحمل أحمد شفيق باشا على الرؤية الغربية الاستشراقية لمسألة الرقّ في الإسلام. وانصرف محمد فريد وجدي وطنطاوي جوهري لإثبات «عقلانية» الحلّ الإسلامي للمشكلات المعاصرة في مُواجهة ما اعتبراه موقفاً استشراقياً غير عقلاني عن الإسلام المُعاصر وقضاياه. حتى إذا كانت ثلاثينياتُ هذا القرن فقد النقاش طابعه المادىء نسبياً ليتحوَّل إلى اتّهامٍ مجرّدٍ للاستشراق الغربيّ في كل شيء؛ وما تزالُ هذه النزعةُ سائدةً حتى اليوم عند العرب والمسلمين.

وهناك ملاحظاتٌ لا بُدّ من إيرادها بشأن هذا الموقف الإسلامي من الاستشراق. فهناك اقترانٌ دائمٌ في أذهان الناقضين للاستشراق والمشكّكين في علميته بين الاستشراق والتبشير. وكتاب محبّ الدين الخطيب: «الغارة على العالم الإسلامي»، وكتاب فروخ والخالدي: التبشير والاستعمار؛ مثلان واضحان على ذلك. وهناك إحساسٌ دائمٌ بأنّ الغربيّ المستشرق لا يمكنُ

أن يكونَ حسن النية أو علمياً عندما يتعلق الأمْرُ بالإسلام؛ فالثناء على أمرٍ معيَّنٍ في الإسلام أو الشرق من جانب بعض المستشرقين لا يُنجي المُثْنين من التشكيك في نواياهم من وراء ذلك؛ ويبدو ذلك في كتاب د. محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث والاستعمار الغربي، كما يبدو في كُتَيِّبات الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود، ورسالة مالك بن نبي التي نشرتها المجلة في ملفّها هذا. وهناك إحساسٌ مُستديمٌ بأنّ المستشرق لا يمكن أن يكونَ مستقلاً في بحوثه وتوجُّهاته؛ فهو لا بُدّ تابعٌ لجهة رسميةٍ مُعادية للإسلام والمسلمين بالغرب أو هو رأس الحربة في منظمةٍ سريةٍ متآمرة على دين المسلمين وحضارتهم؛ ويظهرُ ذلك في دراسات د. محمد محمد حسين وأنور الجندي ومحمد الغزالي. ثم هناك أخيراً اقتناعٌ جازم بأنّ النزاع بين الثقافتين الشرقية (الإسلامية) والغربية مصيريٌّ ليس للمشتركات فيه أُفقٌ؛ ويبدو ذلك في كتابات المودودي والندوي ومحمد قطب. فموضوعة كبلنج القائلة إنّ الشرق شرق، والغرب غرب؛ ولن يلتقيا؛ أمرٌ مسلَّمٌ به في نطاق الرأي الإسلامي السائد.

ويظلُّ الوجه الآخر للقضية محوكاً بالغموض إن لم نلحظ أنّ جزئيات هذا الموقف الحادّ دفاعية الطابع. فالكاتبون الإسلاميون جميعاً يرون أنفسهم في مواجهة زحفٍ حضاريٍّ وثقافيٍّ جارف لا يستطيعون إزاءه غير الوقوف موقف الدفاع المتشنِّج. ويزدادُ هذا البعد النفسيّ للمسألة تعقيداً إذا أخذنا في الاعتبار تقديرَ هؤلاء الناقضين لبعض بحوث المستشرقين واستشهادهم بها، واعتزازهم بثناء بعض المستشرقين على بعض الظواهر والأفراد بالشرق الإسلامي الحديث. ففي الوقت الذي كانت فيه قضيةُ الانتحال في الشعر الجاهلي تحتدمُ بالقاهرة على يد طه حسين المتأثِّر بمارجليوث، وتتناثر فيه التُهَم على رؤوس الاستشراق والغرب كله؛ كان هؤلاء الناقضون لطه حسين ومار جليوث وسواهما يحرصون على حضور محاضرات جويدي ونللينو بالجامعة المصرية، كما كانوا يجهدون سراً وعلانية للتعاون مع فلايشر وفيشر وسواهما في مشروع المعجم التاريخي للغة العربية. وكان مجيء جارودي ورودنسون إلى القاهرة أواخر الستينات حَدَثاً ثقافياً ضخماً، ليس لدى اليساريين من مثقفي الجامعات المصرية فقط؛ بل لدى الأزهريين أيضاً. حتى إذا كتب هؤلاء في قضيةٍ ما متصلة بالإسلام في الشرق أو في بعض المجتمعات العربية الإسلامية اختفى التقدير الشفوي وعادت المواقفُ القديمةُ للبروز. والملحوظُ أنّ الأمر لا جديد فيه عندهم. فالاتّهامات نفسها التي صبّها الشيخ رشيد رضا على رأس أميل درمنغهام؛ يصبُّها محمد البهي ومحمود زقزوق ومحمد شامه في الستينات والسبعينات على

رأسي مونتجومري وات وروودي بارت فيا يتصل بالقضية نفسها . ومع أنّ الكُتّاب في المسألة من المسلمين يتقنون غير لغةٍ أجنبيةٍ في الأعمّ الأغلب؛ فالملحوظ أنهم يستندون في نقضهم للاستشراق إلى القليل الذي تُرجم في أربعينات وخمسينات هذا القرن. وقد قرأتُ بمجلة الحقوق الكويتية مقالين عن «المستشرقين ومصادر التشريع الإسلامي» (١٩٨١ - ١٩٨٢) ما عرف الكاتبان لها من أولئك الذين عَرَضوا للموضوع من بين المستشرقين غير جولدزيهر وشاخت؛ هذا على الرغم من أنّ دراسات هذين في مسائل التشريع تجاوزها البحث الاستشراقي منذ عدة عقودٍ من السنين (واقرأ عرضاً شاملاً لآراء المسلمين بالاستشراق في مقالة G. Alleaume بمجلة الجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط/١٩٨٢).

الاستشراقُ إذن عند الكثرة الكاثرة من كُتّاب العرب والمسلمين المُحْدَثين والمعاصرين هو الوجه الأكاديمي أو المدوَّن للسياسة الاستعمارية في الشرق. وما أفعله هنا هو وصْفُ الظاهرة وصفاً تقويمياً. ولا تستعصي القضية على الفهم على أي حال. فإذا كان الاستشراق (حتى من وجهة نظرٍ متقدمةٍ كنظرة إدوار سعيد) بُعْداً من أبعاد العلاقة المعقَّدة والصراعية بين الشرق والغرب؛ فإنَّ قُنّة جبل الجليد هذا تبدأ بالظهور للعيان. إنّ المثقّفين المسلمين المعاصرين (السلفيين والليبراليين) يعيشون مخاضاً عسيراً وسط الاستنزاف المستمرّ على أرضهم وكياناتهم السياسية؛ ولا ننتظر من جريحٍ ينزف أن يحدّد مُطْلِقَ النار عليه بين المهاجمين. هكذا يرى هؤلاء المسألة. وللقضية بعدٌ تاريخيٌّ ونفسيٌّ لا يُنكَر. فهناك تقاربٌ شديدٌ بين الحضارتين العربية الإسلامية، والغربية. ولهذا التقارب تاريخُهُ ومشكلاته. والمسلمون يرون أنهم في أصل الحضارة الغربية؛ لذا تبدو أحداث القرنين الأخيرين للكثيرين منهم بمثابة طعناتٍ في الظهر يعسُرُ نسيانُها أو تجاهُلُها. وقد كانت كتاباتُ أحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل ومنصور فهمي وعبّاس محمود العقّاد في الثلاثينات والأربعينات تُبشّر بأنّ الجراح ستأسو، وأنّ الناقه سيأوي في النهاية إلى شيء من الاطمئنان والاتّزان وسط مظاهر انحسار الاستعمار القديم. ثم برزت المأساة الفلسطينية، ومشروعات الكيانات الإقليمية والطائفية، واستمرار عوامل الضغط الغربي على الإسلام في آسية وإفريقية؛ فعاد وهج الجرح ونغل، وآلَ الأمر إلى مواقف جامدةٍ بدا معها «الاتّزانُ» سذاجةً أو خيانة. فالمثقّفون المسلمون اليوم بين جامدٍ وحاقدٍ وتعِبٍ ويائس. ولا أُفُق في المنظور لعلاقةٍ سليمةٍ وصحيةٍ بين الشرق والغرب. وقد حاولتُ في جدلٍ استمرّ أياماً مع دارسٍ إسلاميٍّ مخضرم أن أنتزع شيئاً إيجابياً؛ فقال بعد لأيٍ إنّ هناك

أفراداً بين المستشرقين ذوي نظافةٍ وشرف؛ لكنهم هامشيون في الاستشراق المعاصر، وهامشيون في نطاق الثقافة الغربية؛ وواجب المسلم المثقف ذي الإحساس بالمسؤولية اليوم أن يُقيم حواراً جادّاً ومتّزناً ومتفهماً مع مواطنيه من المسيحيين المشرقيين تلمُّساً لوحدةٍ مجتمعيةٍ لم تتحقق؛ أما الحوار مع المثقف الغربي ـ حتى لو كان مستشرقاً صديقاً؛ فأمرٌ سابقٌ لأوانه. وعبد اللطيف الطيباوي رحمه الله ـ وهو الذي قضى أكثر سنيّ كهولته وشيخوخته بالغرب عاملاً في جامعاته؛ كان يرى أن لا يكتب في الإسلام غير المسلمين.

VI

والتبشير في الاستشراق انتهى أو كاد منذ أكثر من جيل. وأتباع مفهوم «الشرق الأوسط» في الدراسات الإسلامية بأميركا؛ ما يزالون قلةً بين المستشرقين لحسن حظّنا وحظّ الاستشراق. والأزمة المنهجية والحضارية التي تتهدّد الاستشراق الكلاسيكي تُفاقمُها رؤيةٌ عدائيةٌ له من جانب الشركات الكبرى، والمسؤولين الحكوميين بالغرب الذين يرون أنه ليس ذا فائدةٍ مباشرةٍ لمصالحهم؛ وبالتالي لا جدوى من استمرار الإنفاق على معاهده وكراسيه. بيد أن الركود الذي تشهده عوالم الاستشراق اليوم بالغرب لا ينبغي أن يصرف أنظارنا عن ذلك التُراث الضخم من النصوص والبحوث الذي أنتجه الاستشراق منذ منتصف القرن الماضي وحتى اليوم. ففيما عدا نصوص قليلة نُشرت ببولاق أو حيدر أباد نشر المستشرقون أكثر النصوص الإسلامية والعربية الضخمة التي ما تزالُ العُمدةَ في مجال قراءة الإسلام الوسيط (انظر عن ذلك المستشرقون لفيليب عقيقي، ومراجعات الكتب في تاريخ الاستشراق آخر هذا الملف). وأياً تكن قيمةُ بحوث المستشرقين في مجال القرآن والسُنّة؛ فقد كانت أول تأمّلٍ تحليليٍّ لذلك استند للمصادر بشكلٍ مباشر. ثم إنّ بحوثهم في مجالات التاريخ والجغرافية والفكر والمجتمع والسلطة، وعلاقات الشرق بالغرب؛ رائدة؛ ولا غنى عنها حتى اليوم في أي بحث علمي بتلك المسائل. ومسائل ركود الاستشراق، وأزمته المنهجية، وعداء الحكومات الغربية له لا ينبغي أن تصرف أنظارنا عن استمرار المشروعات العلمية الكبرى في نطاقه. فقد أتمّ فرانز ألتهايم مع زوجته روت شتيل منذ سنواتٍ قليلة المشروع العلميّ الضخم بعنوان: «العرب في العالم القديم». والنشرة الثانية من «دائرة المعارف الإسلامية» ما تزال تخطو إلى الأمام بعد أن صدر مجلّدها الخامس. ولن تقع في أقلّ من أحد عشر مجلّداً. ولا أهمّ من الأنسيكلوبيديا الإسلامية هذه في مجال التعرف على الإسلام وحضارته؛ كما نعرف نحن الذين نختبر ذلك يومياً.

ويقوم الدارسون الألمان ضمن المشروع المعروف باسم «مجال البحث الخاصّ» منذ أكثر من عقدٍ من السنين بمسحٍ شاملٍ جغرافي وتاريخي واجتماعي وسياسي وديني للشرق منذ أقدم العصور وحتى اليوم. وقد صدرت في نطاق المشروع خرائط موضعية، ودراساتٌ طوبوغرافيةٌ واقتصادية وتاريخية واجتماعية تتميّز بالجدّة والاستقصاء والاستناد للمصادر. وتهتمّ بالاستشراق بمعناه الكلاسيكي (الدراسات الإسلامية) مجلاّتٌ علميةٌ فصليةٌ أو حَولية يبلغ عددها الخمسين في الولايات المتحدة وكندا وأستراليا واليابان والهند والاتحاد السوفياتي وتشيكسلوفاكيا وبولندا وألمانيا الديمقراطية، وألمانيا الاتحادية، وفرنسا، وإنجلترا، وإيطاليا، وأسبانيا. وتنعقد مؤتمراتٌ وحلقاتٌ دراسيةٌ لقضايا استشراقية مختلفة بألمانيا وأميركا وإنجلترا تصدر بحوثها في كتبٍ ومجلاّت متخصصة. وما تزال الكتب التذكارية الصادرة مهداةً لمستشرقين شيوخ أو حديثي الوفاة تأتي بجديدٍ كثير. وما يزال فؤاد سزكين يدأب في إصدار عمله العظيم المعروف باسم: «تاريخ التراث العربي»؛ فقد ظهر مجلده الثامن منذ عامٍ تقريبا. وقد بدأ المشروع إلحاقاً وتصْحيحاً وتطويراً لعمل كارل بروكلمان: «تاريخ الأدب العربي»؛ ثم تحوّل واتّسع ليُصبح قراءةً توثيقيةً مستقصيةً وجديدةً للثقافة العربية الإسلامية كلها.

وذِكْرُ سزكين يدفَعُنا لذكْر «معهد تاريخ العلوم العربية» الذي أُنشيء حديثاً في نطاق جامعة فرانكفورت بالاشتراك بين بعض الدول العربية والجامعة المذكورة؛ ويرأسه اليوم فؤاد سزكين الذي كان صاحب الفكرة في الأساس. والاتّصال بين الشرق والغرب في نطاق الاستشراق لا يقتصر على عمل سزكين (التركي الأصل)؛ ففي الجامعات الغربية اليوم دارسون كثيرون عربٌ ومسلمون يمارسون العملين التدريسي والبحثي ضمن النهج الاستشراقي المعروف؛ وبينهم المتميزون الذين يُحسُّون عمق الأزمة المنهجية، وفساد علاقة الشرق بالغرب. وتدعم دولٌ عربيةٌ غنيةٌ معاهد وكراسي للدراسات الإسلامية، ودراسات الشرق الأوسط بالغربين الأوروبي والأميركي. وما يزال الاستشراق يحيا في عشرات المعاهد ومئات الكراسي بأوروبا الغربية والأميركتين. ولن نستطيع معرفة رأي عبد اللطيف الطيباوي في إقبال بعض المستشرقين في السنوات الأخيرة على اعتناق الإسلام.

وسط هذا كله يصعب التنبّؤ بما سيكون عليه الأمر بعد عقدين من السنين. فهناك احتمالٌ في أن تتطور المسألة تحت ضغط الحكومات والشركات فيسود الحلّ الذي فُرض في المجال السياسي الماركسي اللينيني؛ إذ انتهت «الدراسات الإسلامية» كعلمٍ أو تخصُّص بالاتحاد السوفياتي

وشرق أوروبا! وقامت معاهد وكراسٍ للبحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية يهتم بعضها بالمشرق من وجهة نظر المادية التاريخية ذات المراحل الأربع المعروفة. ويعني انتصار ضغوط الحاجات السياسية والاقتصادية بالغرب الرأسمالي زوال مفهوم الاستشراق بمعناه الكلاسيكي؛ لصالح مفهوم «الشرق الأوسط» بمعناه الأميركي. أما إذا قاومت «المؤسسة التقليدية» - خصوصاً بأوروبا الغربية (بألمانيا وإنجلترا) -؛ فربما أدّى ذلك إلى انقسام العلم إلى علمين: علمِ الشرق الأوسط، وتخصّص الدرسات الإسلامية؛ مع طغيان العلم الأول على العلم الثاني. ولدينا من الدلائل في مجريات الأمور بالحاضر ما يُرجّح هذا المصير الثاني.

VII

والجديد في الاستشراق مصيره في السنوات الأخيرة إلى تأمّل نفسه تأمُّلاً نقدياً. وكانت مقالة أنور عبد الملك (التي أعدنا نشرها في هذا الملفّ) عام ١٩٦٣: «الاستشراق في أزمة» قد أثارت بعض الردود والنقاشات. ثم نُسيت المسألة حتى شعر الجميع بثقل وطأة الأزمة المنهجية في مجال العلوم الإنسانية أوائل السبعينات فتجدّد النقاش حول مفهوم الاستشراق وموضوعه، وعلاقة المستشرق بمجال بحثه؛ ومفاهيم الشرق والغرب والإسلام والعرب في الاستشراق. وجاءت دراسة إدوار سعيد عام ١٩٧٩ فدفعت كثيرين للإدْلاء بدلْوهم في المسألة. وقد بدا ذلك في الثبت التقريبي الذي أعددْتُهُ في نهاية العدد الثاني من هذا الملفّ. كان مقال أنور عبد الملك قد أثار اهتمام مستشرقين كثيرين أشهرهم فرانشسكو جابرييلي وماكسيم رودنسون. واستمرّ اهتمام رودنسون بالمسألة من وجهة نظر تاريخ الفكر، والاتجاهات الأنتروبولوجية والإتنولوجية المعاصرة؛ حتى صدر كتابه: «جاذبية الإسلام» الذي تُرجم للعربية؛ كما نُشرت له مقالات في بعض كتب المؤتمرات عن قضايا الأنتروبولوجيا والاستشراق، والاستشراق ونمط الإنتاج الآسيوي، والاستشراق والمركزية الأوروبية. وتأمّل ڤاردينبورج عام ١٩٧٠ في كتابه: «الإسلام في مرآة الغرب» تطور مفهوم الإسلام أو صورته لدى كبار المستشرقين في القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين. وجرت منتصف السبعينات نقاشاتٌ بين تشارلز آرمز وبيللفيلد عن الدراسات الإسلامية وتاريخ الأديان. بينما رأى A.O. van Nieuwenhüijze المسألة رؤيةً نقديةً راديكاليةً داعياً لاستبدال السوسيولوجيا بالاستشراق (وانظر عن الرؤية السوسيولوجية للإسلام مقالة إدموند بورك في كتاب: الدراسات الإسلامية - نشر مالكولم كير الذي راجعه الملف)؛ وعاد عام ١٩٧٨ فتأمّل

الاستشراق الألماني المعاصر من وجهة نظر فلسفة العلوم. وكنتُ وزميلاً لي قد اقترحنا على بعض أساتذة الدراسات الإسلامية بإحدى الجامعات الألمانية عام ١٩٧٦ : «الاستشراق بوصفه علماً» موضوعاً لفصلٍ دراسيّ فأثار ذلك رهبةً وتردُّداً. أمّا اليوم وبعد صدور كتاب إدوار سعيد الأول: (الاستشراق)؛ فإنّ مسائل التاريخ والصورة والمنهج في الاستشراق طُرحت في كل مكان؛ بحيث لم يتردّد فرانز روزنتال الدارس المحافظ للكلاسيكيات الإسلامية بمؤتمر المستشرقين الألمان عام ١٩٨٠ في إلقاء محاضرةٍ بعنوان: «أزمة الاستشراق». وقد عاد ڤاردينبورج لاقتراح منهجٍ جديدٍ للدراسات الإسلامية لتجاوز الأزمة الحاضرة؛ في المؤتمر نفسه. ونشر شارناي مقالةً عن الاستشراق والمنهج عام ١٩٨١ .

وكان نورمان دانييل قد نشر في الستينات والسبعينات مجلّديه الضخمين بعنوان: الإسلام والغرب، والعرب وأوروبا. ويشكّل الكتابان وثيقةً مهمةً عن تطور صورة الإسلام والعرب بالغرب عبر العصور. وجاءت محاضرات سوذرن في الموضوع نفسه برؤية «جديدة» للقضية (نشرنا فصلاً منها بالملفّ). ومن ناحيةٍ ثانيةٍ اتّخذ هذا التأمُّل الذاتيّ الغربي أبعاداً جديدةً في الإقبال على معرفة صورة الغرب في الشرق وبالعكس؛ بدا ذلك في ملاحظات هشام جعيط بالفرنسية التي لاقت انتشاراً واسعاً بعنوان: «أوروبا والإسلام» (وفي العدد مراجعةٌ له. وكانت مجلة الفكر العربي قد عرضت له من قبل)؛ وكان أنور عبد الملك في مقاله السالف الذكر قد نوّه بدعوة جوزف نيدهام لسماع رأي آسية وإفريقية بأوروبا والغرب. وقامت الباحثةُ الألمانية المعروفة روتراود ڤيلاند بدراسة «صورة الأوروبي في الروايات والمسرحيات العربية الحديثة» في مجلدٍ ضخمٍ مستقصٍ ودقيقٍ أصدره المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ببيروت. وتصدر عن معهد الإنماء العربي ببيروت دراسةٌ للدكتور خالد زياده بعنوان: «تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا». وكانت السيدة نازك سابا يارد قد نشرت دراسةً واسعةً بعنوان: «الرحّالون العرب وحضارة الغرب» (١٩٧٩) يعيبُها رغم استقصائها إيثار المراجع الغربية على النصوص الأصلية.

VIII

ذكرت مجلةٌ ألمانيةٌ أنّ صحفياً سأل المستشار الألماني السابق هلموت شميت عن «مشاريعه» للمستقبل بعد أن ترك العمل السياسي الرسمي؛ فأجاب بعد طول تردُّد: أُريد أن أكتب عملاً

عن اللقاء الإنساني والحضاري في ديانات التوحيد؛ على الخصوص: المسيحية والإسلام!!

والحقّ أنّ مسائل علاقة المسيحية بالإسلام، والحضارة الغربية بالحضارة الإسلامية، ومستقبل الحياة على هذه الأرض في ظلّ صراعات الشرق والغرب؛ هذه المسائل كلّها تشغل منذ أكثر من قرنٍ أناساً بالغرب ليس منهم السياسيون الاستعماريون أو الانتهازيون أو المبشرون. هذه المسائل حاضرةٌ في تاريخ الفكر، والرؤية الإنسانية للعالم، والتطلّع لشرقٍ وغربٍ متقاربين بعد إذ أعطى هذا الشرق الغرب دينه وأساس حضارته الحالية. ويتزايد الاتّصال اليوم على المستويات كافّة؛ فهناك نقاشات حوار الحضارات التي أثارتها رؤية روجيه جارودي في كُتيّبه بالعنوان نفسه. وهناك الحوار العربي الأوروبي (قارن على سبيل المثال بالعدد رقم ٢٨ من مجلة شؤون عربية). وهناك المؤتمرات الإسلامية المسيحية بالتنسيق مع الكنيسة الكاثوليكية أو مع مجلس الكنائس العالمي. وكانت الأجهزة السياسية الغربيةُ في الأربعينات والخمسينات قد سيطرت على بعض قنوات الاتّصال من أجل «الدفاع عن الشرق الأوسط» و«حرية الثقافة» و«الإيمان ضد الإلحاد السوفياتي»؛ فشكّل ذلك نكسةً للقضايا المطروحة، وزاد من شكّ المشاركين المسلمين في نوايا القائمين على الاتّصال من الغرب، وأعوانهم من بيننا بالمشرق. لكنّ العقدين الأخيرين شهدا مؤتمراتٍ وندوات بلغت درجة «عالية» من التفهُّم والصراحة والعلمية، وجرت فيها دراسةُ قضايا مصيرية من مثل: حقوق الإنسان في المسيحية والإسلام، والعلاقات التاريخية بين المسلمين والمسيحيين، والتعايُش الإسلامي المسيحي اليوم، وإمكانيات الأديان في الإسهام في السلام العالمي ونزع السلاح. ويُسهم بعض المستشرقين في ذلك بشكلٍ مباشر في المجلة الجيّدة التي تصدر بروما منذ عام ١٩٧٥ باسم: إسلاميات مسيحيات؛ ويكتب فيها دارسون مسلمون ومسيحيون في مسائل الحوار والعلاقات الثقافية.

لكنّ حوار المسيحية الغربية مع الإسلام ما يزال في بداياته، وما يزال يُعاني من تأزّم علاقات الشرق والغرب. كما لا يزال يُعاني من إحساس المسلمين بأنهم الطرف الأضعف في السياسة والثقافة. إنهم لا يستطيعون أن يقفوا على قدم المساواة مع مُحاوريهم (أو هكذا يُحِسُّون)، ويخشَون من ناحيةٍ ثانيةٍ أن يضعهم هؤلاء في جيوبهم.

★★★

كان معهد الإنماء العربي ببيروت الذي يُصدر مجلة «الفكر العربي» قد نشر منذ عامين بحثاً

للدكتور ميشال جحا عن الدراسات الإسلامية بأوروبا. ويصدر هذا العام دراستين؛ إحداهما لمحمد أركون في قضايا التجديد الإسلامي. والثانية لخالد زياده عن تطور النظرة الإسلامية إلى أوروبا.

أما هذان العددان من مجلة الفكر العربي؛ واللذان يحملان اسم: «الاستشراق: التاريخ والثقافة والمنهج» فقد بدأنا بإعدادهما بالمعهد منذ أكثر من عام على أثر النزاع العنيف الذي أثارته ترجمة كتاب إدوار سعيد إلى العربية. ومما يؤسَفُ له أن لا يكون النقاش الذي أثارته هذه المحاولة العلمية الجادّة بمستوى المُحاولة نفسها؛ إذ فهم منها السلفيون أنها ربطٌ نهائيٌّ للاستشراق بالتبشير والسياسة الاستعمارية. وفهم منها اليساريون إدانةً للاستشراق الغربي وانتصاراً للاستشراق الروسي؛ مع أنّ الرجل لم ينس مركزية ماركس. ورأى فريقٌ ثالثٌ أنّ الرجل يبقى «أميركياً» لا ينقُض بل ينقد؛ لذلك ينبغي الحَذَر منه!!. ونصح لنا صادق جلال العظم ـ شأنه في الخروج على ما يعتبره مألوفاً ـ بأن نحذر من نرجسية سعيد المشرقية في مواجهة النرجسية الغربية المعروفة؛ رغم اعتباره له أميركياً متواطئاً!!. هذا كله رأينا فيه مناسبةً لإعادة طرح مسألة الاستشراق والعلاقات الحضارية والثقافية للشرق والغرب بهدوء واتّزان. وقد عالج العددان تاريخ الاستشراق في إسهاماتٍ بحثية ومراجعات كتب. كما عالجا إنجازات الاستشراق من خلال موضوعات محدّدة، وتراجم لمستشرقين. وكانت هناك تأمُّلاتٌ في صورة الاستشراق ومفهومه وتطوراته. ولم يغب موضوع «الشرق والغرب»؛ الذي حضر في الواقع في العددين جميعاً. ورأينا لكي تتضح المواقف من الاستشراق تماماً أن نعرض نصوصاً منشورةً مؤيِّدة ومُعارضة له. وكنا نودّ ترجمة بعض إسهامات المستشرقين النقدية في تأمُّل الذات والآخر وقضايا المنهج؛ ثم أعرضْنا عن ذلك لكي لا تبرز الترجمات على حساب الإسهامات العربية. ويمكن الاطّلاع على مصادر تلك الإسهامات في الثبت الذي أعددناه آخر العدد الثاني.

آمل أن تكون جهودنا في الإعداد لهذا الملفّ وتصنيفه قد استطاعت أن تُبرز الغِنى الذي تتميز به المسألة؛ التي تأتي هذه المقالات في سياق مزيدٍ من الفهم لها. ولن تكون الكلمة الأخيرة طبعاً في قضايا غير منتهية. وبالله التوفيق.